الحوار الوطني وتأصيل الوحدة الثقافية

د. أنور بن ماجد عشقي
رئيس مركز الشرق الأوسط
للدراسات الاستراتيجية والقانونية

ليست الوحدة بين الشعوب بالأمر اليسير، فالوحدة لا تنسجم بالقوة، ولا تتوثق بالقرارات، لكنها تأتي بعدة أشكال: وحدة الهدف، والوحدة السياسية، والوحدة الاجتماعية، والوحدة الثقافية.

فالمملكة بدأت بوحدة الهدف، وهو كلمة (لا إله إلا الله) التي جعلها الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه هدفاً يلتف الجميع حوله، ثم سعى إلى الوحدة السياسية بين أطراف المملكة العربية السعودية، وظل أربعين عاماً حتى أرساها، وهذه المرحلة اقتضت أن يكون الحكم فردياً، والنظام فيها رعوياً، فكان الانتماء فيها للمؤسس والدولة، وهذا ما حكم المرحلة الأولى التي كانت فيها الدولة تتولى مختلف الشؤون السياسية، والاجتماعية والتعليمية، والمعاشية وغيرها، ولهذا أطلق عليه النظام الرعوي، فكان المجتمع السعودي محكوماً بثقافة القطيع.

وبعد أن تأهل الإنسان السعودي وتسلح بالعلم والمعرفة بدأ في التحول من النظام الرعوي إلى المواطنة، وقد بدأت هذه بإصدار نظام الحكم الذي أطلقه الملك فهد رحمه الله وأصبح الانتماء فيها إلى المؤسسة التي تجمع كل المواطنين، فبرزت المواطنة دون الوطنية، لأن المواطنة انتماء للوطن، أما الوطنية فهي الشعور الواعي بالانتماء للوطن، والعمل في إطار السياسة والمنهج الأساسي الذي وضع ليحكم العلاقات بين المواطن والقيادة السياسية.

هذه المرحلة لو ظلت دون تطوير، فإنها قد تفرز نوعاً من الجفوة بين الأطياف الدينية والاجتماعية التي يتكون منها النسيج الوطني، فكان لابد من الانتقال السريع إلى الوطنية وهذا لا يتأتى إلا بوجود نخب ثقافية تنشر في القطاعين الأهلي والحكومي.

فالنخب الثقافية التي أنتجتها الخطة التعليمية والتربوية اجتذبتها الحكومة لتساهم في بناء الوطن من خلال القطاع الحكومي، فأصبحت هذه النخب تعرف بالنخب الحكومية واستطاعت أن تساهم في تطوير أداء الجهاز الحكومي.

وما هي إلا سنوات حتى انتشرت النخب الثقافية في القطاع الأهلي، وتكونت النخب الاجتماعية، وهي مجموعة من المثقفين أيقظت المعرفة وجدانها للدفاع عن الوطن

القيادة السياسية استجابت لكل ما من شأنه خدمة الوطن وتقدمه

الحوار الوطني أزال كثيراً من الجفوة بين الكيانات الاجتماعية وأرسى قواعد التعددية

ثقافة الحوار أصبحت من مكونات الأمن الوطني

وحماية مكتسباته، وأخذت تعمل في ميدان النقد البناء، بتشجيع من القيادة السياسية التي استجابت إلى كل ما من شأنه خدمة الوطن وتقدمه.

حوار الأطياف:

ومن خلال التحديات التي واجهتها المملكة العربية السعودية في نهاية القرن العشرين، وبداية القرن الحادي والعشرين التي كان من أبرزها الإرهاب عمد خادم الحرمين الشريفين إلى تشخيص الحالة الاجتماعية، فعمل على تأصيل الروح الوطنية في أبناء المملكة العربية السعودية، والانتقال بهم من المواطنة إلى الوطنية، فأمر بتأسيس مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني لتعميم الوحدة الثقافية، لهذا جاء اسم المركز معطوفاً على الملك المؤسس طيب الله ثراه.

بدأ الحوار الوطني بين الأطياف الدينية والاجتماعية التي يتكون منها النسيج الاجتماعي، فكان الحوار يتم بين النخب الثقافية بنوعيها الأهلي والحكومي، وتشرف عليه وتخطط له قيادة واعية بأهمية المرحلة التي تمر بها المملكة، وعقدت في أنحاء المملكة عدة اجتماعات للحوار الوطني، كان من أبرزها: الحوار الوطني في عسير بأبها، وهو الحوار الذي انطلق عبر وسائل الإعلام ليعم أرجاء المملكة من خلال وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة فدخل كل منزل ومقهى بشفافية واضحة، فعمت ثقافة الحوار جميع أبناء المملكة من شباب وشيوخ ونساء وأطفال.

إرساء التعددية:

كما أن الحوار أزال كثيراً من الجفوة بين الكيانات، فعم التفاهم الأطياف الدينية والاجتماعية، وارتفع الحس الوطني بين أبناء الشعب السعودي، مما تسبب في دحر الإرهاب، وإرساء التعددية التي تشكل ضرورة للارتقاء بالحوار إلى المستويات التي تساعد على التقدم ولم تعد هذه التباينات تشكل ألغاماً موقوتة تهدد الأمن القومي.

إننا نعيش اليوم عصر التحديات الثقافية، فالمناهج السياسية التقليدية لم تعد كافية لفهم وتفسير السلوك الإنساني، وبرزت إلى السطح منهجية التحليل الثقافي كأساس لفهم حالات الصراع والتعاون بين أطياف المجتمع، فمنهجية التحليل الثقافي ظهرت بعد التحولات الكبرى التي لحقت ببيئة المجتمع العالمي، فالتحول من النظام الثنائي العالمي إلى النظام الأحادي الذي تهيمن عليه الولايات المتحدة الأمريكية بثقافتها التعددية، ونظامها العلماني الذي يستوعب مختلف الثقافات لتعمل في بوتقة واحدة متعاونة تشكلت على ركام القوميات الأحادية ذات الانتماء العرقي التي شهدتها أوروبا في القرن التاسع عشر، والأحادية الأيديولوجية التي احتضنتها الشيوعية في القرن العشرين.

فالحوار الوطني جعل المواطن السعودي يسعى إلى الارتقاء بثقافته من الأحادية الأيديولوجية والعرقية إلى القبول بالتعددية المؤطرة بالوطنية التي توحد المشاعر والمفاهيم لخدمة الوطن وأمنه.

لقد ساهم الحوار الوطني في تأصيل الوحدة الثقافية في المملكة العربية السعودية، وقد عزز من نجاحه أن القيادة السياسية لم تكن طرفاً في الصراع أو طرفاً في الخصومة بين الأطياف التي يتكون منها المجتمع السعودي، بل ساوت بين الجميع في الحقوق والواجبات، وهو ما يؤكد عليه النظام السياسي في الإسلام، الذي ضمن الحقوق لأبناء الوطن.

فالنبي صلى الله عليه وسلم حينما بدأ في بناء الدولة الإسلامية في المدينة أصدر الصحيفة التي اعترفت بحقوق الأقليات التي يتكون منها النسيج الاجتماعي في المدينة المنورة.

فقد ضمنت الصحيفة حقوق اليهود والنصارى والوثنيين والمسلمين، كما ضمنت حقوق الأوس والخزرج وبني إسرائيل، وباقي القبائل في المجتمع المدني.

إننا في حاجة إلى مزيد من الحوار الوطني، وفي حاجة أيضاً إلى تأصيل ثقافة الحوار لتعم المجتمع السعودي، ولابد من أن تبدأ ثقافة الحوار من المنزل والمدرسة، لقد أصبحت ثقافة الحوار من مكونات الأمن الوطني في القرن الحادي والعشرين فهي الكفيلة بمواجهة التحديات الثقافية.

والله الموفق